الفصل الثاني

يوسف كرم

وفلسفة «العقل والوجود»

الفصل الثاني

يوسف كرم
وفلسفة «العقل والوجود»

أولاً: مكانته الفكرية:

يُعد يوسف كرم (1886 - 1959م) أحد أهم الرواد من الرعيل الأول من أساتذة الفلسفة المصريين الذين حملوا عبء تعبيد الطريق أمام الأجيال التالية من الباحثين في الفلسفة؛ فقد قدم أهم مؤلف بالعربية للآن في تاريخ الفلسفة عبر ثلاثة أجزاء. كما حاول تقديم صورة معدلة مطورة لمذهب فلسفي يجمع بين الأرسطية التوماوية في قضايا المعرفة والوجود في دراسة الطبيعة وما بعد الطبيعة. وامتاز أسلوبه بالدقة العلمية المتناهية والرصانة التي لا يمتلك معها قارئ مؤلفاته إلا اليقظة والانتباه لما عرض أمامه من أفكار وآراء ومذاهب درسها مفكرنا بعناية فائقة و يعرض لها في أقصر وأدق عبارة ممكنة.

ثانيا: حياته

رغم أن يوسف كرم آثر في حياته الاعتكاف والزهد والبُعد عن أضواء الشهرة. فإننا نملك قدرًا معقولاً من المعلومات حول حياته التي امتدت لأكثر من سبعين عامًا. فقد ولد في الثامن من سبتمبر 1886م بمدينة طنطا بوسط الدلتا لأبوين مسيحيين يعودان في أصلهما إلى أسرة لبنانية استوطنت مصر. وقد تلقى تعليمه الأولى بمدينة طنطا حيث حصل في مدارسها على الشهادة الابتدائية والشهادة الثانوية.

سافر بعد ذلك إلى فرنسا ليواصل دراسته الأكاديمية هناك، حيث التحق بالجامعة

الكاثوليكية ثم جامعة السربون بباريس التي حصل منها على دبلوم للدراسات العليا. وقد واجه يوسف كرم فيما يروي مؤرخوه ظروفًا صعبة طوال حياته الدراسية والعلمية حيث عمل منذ مطلع شبابه موظفًا بالبنك الأهلي بطنطا قبيل سفره إلى فرنسا، وكذلك عمل مدرسًا في إحدى المدارس الثانوية الفرنسية أثناء وجوده بفرنسا وحينما عاد من باريس عانى في البداية من البطالة فتفرغ للبحث والدراسة والقراءة إلى أن تمكن من الالتحاق بالعمل في الجامعة المصرية (جامعة فؤاد الأول)، جامعة القاهرة حاليًا. ثم انتقل للعمل بالتدريس في جامعة الإسكندرية بكلية الآداب - قسم الفلسفة، وظل يواصل عمله الجامعي إلى أن بلغ سن المعاش. وبعدها تحول للعمل بنفس الكلية والجامعة كأستاذ غير متفرغ للفلسفة حتى وفاته في الثامن والعشرين من مايو 1959م.

قضى يوسف كرم حياته إذن في محراب الفكر متفرغًا للبحث والدراسة والتأمل والتأليف والتدريس الجامعي، ولم يؤثر عنه أي نشاط ثقافي عام اللهم إلا بالكتابة لبعض المجلات الثقافية مثل مجلة «الكتاب» والمجلة التوماوية التي كتب لها بعض المقالات باللغة الفرنسية كان أهمها دراسات له عن «القلق الإنساني في الفكر اليوناني»، و«مفهوم الفلسفة المسيحية»، و«المدينة الفاضلة عند الفارابي»، و«حملة الغزالي على الفلاسفة»، و«فكرة الفلسفة عند القديس توما الأكويني»، و«مشكلة الشر بين المذهب التوماوي ومذهب ديكارت».

ثالثًا: مؤلفاته ومترجماته

كان يوسف كرم مقلاً في كتاباته وترجماته ويرجع ذلك بالطبع إلى تمهله الشديد في إخراج ما يكتب إلى الجمهور إلا بعد مراجعات وتدقيقات تميز بها عن غيره من مؤلفي وكُتَّاب عصره، ففي مجال الترجمة نقل إلى العربية بعض محاضرات الرعيل الأول من أساتذة الفلسفة الفرنسيين في مصر؛ حيث ترجم «ثلاث دروس في ديكارت» لألكسندر كواريه، و«نفسية الأحكام التقويمية» لأندريه لالاند.

أما مؤلفاته فقد سارت في اتجاهين أولهما: التأريخ للفلسفة في مختلف عصورها. وثانيهما: عرض رؤيته الفلسفية الجديدة في قضايا المعرفة والوجود. كتب في الاتجاه الأول ثلاثة مؤلفات هي «تاريخ الفلسفة اليونانية»، «تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط»، «تاريخ

الفلسـفة الحديثة». وكتب في الاتجاه الثاني كتابين هما «العقـل والوجود»، و«الطبيعة وما بعد الطبيعة»، وهاكم بعض التفاصيل عن هذه الكتب الخمسة:

1) تاريخ الفلسفة اليونانية:

يبدأ يوسف كرم مؤلفه التأريخي للفلسفة اليونانية بتوضيح موقفه من قضية نشأة الفلسفة حيث يرى أنه على الرغم من أن لدى أمم الشرق نظرات فلسفية وأنه يمكن أن نجد لكل فكرة يونانيـة مثيلة شرقيـة إلا أن أمم الشرق وخاصة الفرس والهنود قـصروا مهمة النظر العقلي على تمحيص الدين و إصلاحه ولم يوفقوا إلا بعض التوفيق في تبيين ماهية الفلسـفة و إقامتها كعلم مسـتقل (ص د،د). و ينتقـل بعـد ذلك إلى عرض للفكر اليوناني السـابق على الفلسـفة وخاصة عند هوميروس وهزيود والديانات السرية والحكماء السـبعة. ثم يتحدث في الباب الأول عن نشـأة الفلسـفة النظرية فيعرض في الفصل الأول منه لفلسـفة الأيونيين؛ طاليس وانكسيمندر وانكسـيمانس وهيراقليطس. و يعرض في الفصل الثاني للفيثاغوريـين ومذهبهم وعلومهم، ثم يتحدث في الثالث عن الإيليين: اكسانوفان و بارمنيدس وزينون وميليسوس، وفي الرابع يعرض لفلسفة أنبادوقليس وديمقريطس وانكساغوراس.

و ينتقـل في البـاب الثاني للتأريخ لنشـأة الفلسـفة العملية فيتحدث في فصلـين متتالين عن السوفسطائيين وسقراط, وفي الفصل الثالث يتحدث عن صغار السقراطيين. ثم يخصص الباب الثالث للحديث عن أفلاطون وفلسفته. والباب الرابع للحديث عن أرسطو وفلسفته، أما الباب الخامـس فيؤرخ فيه للفلسـفة والأخلاق من القـرن الثالث قبل الميلاد حتـى القرن الأول قبل الميـلاد حيث تحدث عن المدارس السـقراطية الصغرى الميجارية والكلبيـة والقورينائية. ثم عن أبقوروس وفلسـفته ثم عن الفلسـفة الرواقية وعن الشكاك واتجاهاتهم الشكية المختلفة. أمـا الباب السـادس فقد خصصـه للتأريخ للفلسـفة والدين مـن القـرن الأول الميلادي حتى القرن السـابع عبر سبعة فصول غطت الحديث عن الغنوسـية، واليهودية، والفلسفة اليونانية، والمسـيحية والفلسـفة اليونانية، وذلك عن الأفلاطونية الجديدة وخاصة أفلوطين، واختتم هذا الجزء بالحديث عن شراح أرسـطو: الإسكندر الأفروديسي وثامسطيوس وسمبليقوس و يوحنا النحوي.

2) تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط:

وهو يستكمل في هذا الكتاب التأريخ للفلسفة الأوربية في العصور الوسطى عبر أربعة أبواب؛ خصص الأول منها للحديث عن أساتذة العصر الوسيط وهم القديس أوغسطين وديونيسيوس وبولس. وخصص الثاني لتكوين الفلسفة المدرسية على يد الجدليين واللاهوتيين والمترجمين وفلاسفة القرون من العاشر حتى الثاني عشر. أما الباب الثالث فقد خصصه لدراسة فترة النضج في الفلسفة المدرسية فيطلق عليه «أوج الفلسفة المدرسية»؛ وعرض فيه لفلاسفة القرن الثالث عشر كالقديس يونافنتورا والقديس ألبرت الأكبر والقديس توما الأكويني وروجر بيكون. ولم ينس في هذا الباب توضيح ما للفلسفة الإسلامية من أثر على هؤلاء القساوسة بفضل ترجمة الكتب الفلسفية من العربية إلى اللاتينية. وقد أنهى هذا الجزء بباب تحدث فيه عن انحلال الفلسفة المدرسية في القرن الرابع عشر. وقد تميز عرضه لهذا الجزء بإبراز وجهة نظره الخاصة في دحض الرأي الشائع مؤكدًا حقيقة «أن المدنية الحديثة منحدرة عنه وأنه لا يمكن تفسير مذاهب الفلسفة الحديثة وفهم مصطلحاتها بغير الرجوع إلى المذاهب المدرسية» (ص6).

3) تاريخ الفلسفة الحديثة:

يعرض يوسف كرم في هذا الجزء ما تبقى من تاريخ الفلسفة الغربية حيث يستعرض فلسفة القرون من الخامس عشر حتى العشرين في ستة أبواب؛ خصص أولها لبعض الفلاسفة في عصر النهضة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر. وخصص الثاني لعرض مذاهب فلاسفة القرن السابع عشر وخاصة مذاهب ديكارت ومالبرانش وبسكال واسبينوزا وليبنتز وهوبز وبيكون ولوك. كما درس في الباب الثالث فلسفات القرن الثامن عشر كفلسفة باركلي وهيوم وكوندياك وفولتير وروسو وأخيرًا فلسفة كانط. أما الباب الرابع فقد خصصه للحديث عن فلسفة النصف الأول من القرن التاسع عشر وخاصة فختى (فشته) وشلنج وهيجل وشوبنهور وهربارت من الفلاسفة الألمان، ومين دي بيران وفيكتور كوزان وسان سيمون وأوجست كونت من الفلاسفة الفرنسيين. وبنتام وجيمس وكوليردج وكارليل من الفلاسفة الإنجليز. وفي الباب الخامس عرض لفلسفات النصف الأخير من القرن التاسع عشر وخاصة فلسفات جون ستيوارت مل وداروين وسبنسر وجرين وكارل ماركس ونيتشه. أما الباب السادس فقد

درس فيه فلسفات النصف الأول من القرن العشرين وخاصة الفلسفة الأمريكية ممثلة في وليم جيمس وجوزيا رويس وجون ديوي، والفلسفة الإنجليزية ممثلة في برادلي وبوزنكيت وصمويل الكسندر ووايتهد وفرديناند شيلر وبرتراندرسل والفلسفة الفرنسية ممثلة في أميل دور كايم وليفي برول وبرجسون ولالاند. ثم اختتمه بالحديث عن الفلاسفة الألمان خاصة أصحاب فلسفة الظواهر (الفينومينولوجيا).

4) **العقل والوجود:**

هو كتاب فلسفي رفيع المستوى خصصه مؤلفه لعرض موقفه من مسألة المعرفة باعتبارها المحور الذي تدور حوله مسائل الوجود، إذ كان يعتبر أن الحلول التي يقدمها الفيلسوف لمسائل الوجود تأتي تبعًا لموقفه المرتضى من مسألة المعرفة؛ ففي تقديم البحث في المعرفة إظهار للأسباب التي تحدو بكل فيلسوف إلى سائر آرائه، ولما كان ثم اتفاق بين الفلاسفة على أن المعرفة العقلية أعلى من المعرفة الحسية وحاكمة عليها فقد انتهت مسألة المعرفة إلى مسألة العقل. وتبعًا لهذا الرأي الدقيق جاء تقسيمه لأبواب الكتاب فعرض في الباب الأول لوجود العقل في أربعة فصول تحدث في الأول عن التصور الساذج وفي الثاني عن الحكم وفي الثالث عن القياس وفي الرابع عن الاستقراء. وعرض في الباب الثاني لنقد العقل عبر أربعة فصول أيضًا تحدث في الأول عن الشك واليقين وفي الثاني عن التصور والوجود وفي الثالث عن العقل و إدراك الطبيعة وفي الرابع عن العقل وما بعد الطبيعة.

أما الباب الثاني فقد انتقل فيه لدراسة المعاني والمبادئ الأولية عبر أربعة فصول كذلك عرض في الأول منها لقضية الوجود والتعريف به ودلالة اسم الوجود وجهاته، وفي الثاني لمبادئ الوجود، عددها وقيمتها، وفي الثالث تحدث عن لواحق الوجود الواحد والحق والخير والشر والجمال. وفي الأخير تحدث عن الفعل والقوة، والجوهرو والعرض والماهية والوجود والعلة الفاعلية والعلة الغائية. وقد عرض لكل هذه المسائل من منظوره العقلي التوماوي الجديد الذي يرتد في النهاية إلى مذهب أرسطو.

5) **الطبيعة وما بعد الطبيعة:**

وموضوعه يعتبر امتدادًا لعرض الرؤية الفلسفية الخاصة بصاحبه وقد قسمه حسب

عنوانـه إلى بابين؛ درس في الباب الأول «الطبيعة» عبر أربعة فصول جاء الأول بعنوان تدهور الأجسـام عرض فيـه للمذاهب المختلفة حـول الطبيعة واهتم فيه بنقـد المذهب الآلي وتفنيد مقولاتـه. وتحدث في الثاني عن الحيـاة النامية فوصفها وبين الغائية فيهـا ورفض الحجج المادية وانتهى بتوضيح مبدأ الحياة والنفس وأصل الحياة. وفي الفصل الثالث تحدث عن الحياة الحاسـة مـن خلال علم النفس فبين أصالة الحياة الوجدانية ودرس الإحسـاس والتخيل والتذكر وحياة الحيـوان عامة. أما الفصل الرابع فقد خصصه لدراسـة الحياة الناطقة بـدءًا من العقل والإرادة ومنتهيًا بالحديث عن الحرية والجبرية والنفس الإنسانية وجودها وروحانيتها وخلودها.

أما الباب الثاني فخصص لدراسـة موضوع ما بعد الطبيعـة بدءً من تحديد موضوع ما بعد الطبيعة والبرهنة على وحود اللـه وصفات الذات الإلهية وصفات الفعل الإلهي وانتهاء بفصول جدليـة حول بطـلان الأحادية والرد على المعترضين بصددها وحل إشـكالات الصفات الإلهية من خلال التسـاؤل حول كيف تعين هذه الصفات وكيف توجد في الله. واختتم بفصل تحدث فيه عن التشـاؤم والشر والتفاؤل، ثم بخاتمة تسـبيح وتمجيد والتماس البركة الإلهية مستشـهدًا بنصوص فلسفية لابكتيتوس من الرواقيين ولأفلوطين الزعيم الروحاني الأشهر.

رابعاً: مذهبه الفلسفي

يلتـزم يوسـف كرم في عرض أفكـاره بمنهج عقلي صـارم و إن كان ملفوفًـا بغلالة روحية رقيقـة. فهو يرى أن المثل الأعلى للتفلسـف وللآراء الفلسـفية الناصعة هو أرسـطو فيلسـوف اليونان الأشهر، ممزوجًا برؤية دينية ترفض كل ما يتعارض مع الدين خاصة في موضوع إنكار العلم الإلهي والمعجزات.

إنه يحدد بنفسه مذهبه الفلسفي بأنه « المذهب العقلي الذي يؤمن بالعقل Intellectualisme، ولكنه المذهب العقلي المعتدل، و يؤمن أيضًا بالوجود و يقدر تعقله عليه. سبق أفلاطون إلى بعض لمحات منه، ولكن أرسـطو هو زعيمه الأول الذي اسـتخلص معانيه الأساسية ومبادئه المنطقية والميتافيزيقية وصاغ تعريفاتها واسـتخرج نتائجها، وأن الفلاسـفة الإسـلاميين وبخاصة ابن سينا وابن رشد قد أسهموا فيه باللسان العربي المبين. فنحن نعود إلى هؤلاء جميعًا ونؤيد شروحهم ونبين تهافت الذين حادوا عنها من الفلاسفة المحدثين» (العقل والوجود، ص7).

إنه يؤمن إذن بذلك العقل الذي وضع أسسه كلاً من أفلاطون وأرسطو وابن سينا وابن رشد، والذي حاد عنه بعض الفلاسفة المحدثين. ويحاول الرد على دعواهم بأن العلم قد نسخ كل تلك الآراء ليؤكد «بأن الحق مكنون في هذا القديم الذي نبعثه» (ص7).

يعرف يوسف كرم العقل بأنه تلك القوة التي تدرك طوائف من المعارف اللامادية؛ فهو يدرك أولاً ماهيات الماديات لا ظاهرها، ويدرك ثانيًا المعاني العامة للوجود والجوهر والعرض والعلية والمعلول والغاية والوسيلة والخير والشر والفضيلة والرذيلة والحق والباطل، ويدرك ثالثًا علاقات أو نسبًا كثيرة كالعلاقة بين أجزاء الشيء الواجد وعلاقات الأشياء فيما بينها وعلاقات المعاني والعدد والترتيب. كما يدرك المبادئ العامة في كل علم من العلوم، ويدرك كذلك الموجودات غير المادية كالنفس والله وخصائصهما الذاتية.

وعلى هذا النحو يثبت يوسف كرم وجود العقل وأصالة إدراكه ومغايرتها لأفعال الحواس ويختتم دفاعه الشديد عن العقل بعبارة أرسطية يقول فيها أنه لا ينبغي اتباع الذين يحثوننا على أن نفكر أفكارًا إنسانية لكوننا أناس، وأفكارًا فانية لكوننا فانين، بل يجب أن نعمل كل ما في الوسع لكي نحيا وفقًا لهذا الجزء الذي هو أشرف قوانا فلئن كان صغير المقدار فإنه يعلو على سائر الأجزاء علوًا كبيرًا قوة وكرامة (نفسه، ص188). ويأسف شديد الأسف لانحراف بعض الفلاسفة عن هذا الطريق الملكي طريق الفلسفة الحقيقية البعيدة عن الشك والإنكار. الفلسفة التي يحل بواسطتها «الإيمان في القلوب» (نفسه).

وقد طبق يوسف كرم رؤيته - الإيمانية في كتابه « الطبيعة وما بعد الطبيعة»، وقدم فلسفة تتجاوز التفسيرات المادية الآلية للطبيعة بعد مناقشتها ودحض أدلتها، ينتقل من دراسة الطبيعة على نحو غائي يكشف ما بها من نظام دقيق وحيوية دافقة هي نتيجة الفعل الإلهي فيها، ينتقل من ذلك إلى دراسة ما بعد الطبيعة كاشفًا عن سمو هذا العلم بسمو موضوعه، فأهم موضوعات هذا العلم هو الوجود الإلهي. ومن ثم فهو يقدم لنا بداية عدة براهين عقلية على وجود الله يمزج فيها بين ما قدمه فلاسفة اليونان وخاصة أرسطو وبين ما قدمه فلاسفة الإسلام. ويبدأها ببراهين عامة تستند على شواهد طبيعية هي «التركيب والتغير والحدود والتناهي.. فهي أربعة وجوه يتبين منها نقص العالم واحتياجه إلى وجود كامل يفسره» (الطبيعة وما بعد الطبيعة، ص144).

ودور العقل هو أن يفحص عن هذا الوجود الكامل - وجود الله ويوضح ماهيته. أما البراهين الأخرى فهي برهان من الحركة إلى محرك ثابت وهو برهان يستند على صلة العلة بالمعلول وتسلسل العلل إلى أن نصل إلى ضرورة وجود علة محركة هي بذاتها لا تتحرك وإلا أدى مبدأ العلية إلى إنكار العلية. وبرهان النظام الذي يكشف عن غائية ونظام لابد لهما من علة هي الله. وبرهان من المكن الوجود إلى الواجب الوجود؛ فالكائنات المختلفة تتكون وتفسد، تظهر وتزول فهي إذن قبل التكوين والظهور قد توجد وقد لا توجد. ولما كانت الممكنات كثيرة جدًا، فلابد أن يوجد ذلك الموجود الواجب الوجود وهو الله حتى لا يظل التداعي إلى غير نهاية في سلسلة الممكنات، ثم يختم بتقديم خمسة براهين خاصة مأخوذة من علم الحياة والنظر في النفس الإنسانية والغرائز الحيوانية.

وعندما يتأكد بتلك البراهين أن الله موجود لا محالة، يبدأ في تأمل الصفات الإلهية التي تمثل عين ذات الإله. وقد نبه مفكرنا إلى أن الحديث عن الصفات الإلهية يقتضي الحذر من أمرين هامين يوقعان من لا ينتبه إليهما في أخطاء عديدة؛ أولهما إدراك أن معرفة «الغائب تحصل بالحكم لا بالتصور الساذج لأن التصور مكتسب في الحقيقة من المشاهدة؛ فإذا حكمنا بأن الله عليم مريد كان هذا الحكم صادقًا لابتنائه على شواهد قاطعة ولكن لا ينبغي أن نحاول تصور العلم الإلهي أو الإرادة الإلهية في ذاتهما أي النحو الذي توجد عليه الصفة في الله، فإن مثل هذا التصور ممتنع علينا لغيبة الماهية الإلهية عن عقلنا وللفرق اللامتناعي بين عقلنا وبينها» (ص154 - 155). أما الأمر الثاني فهو التنبيه على «أن ما نحكم به في حق الله يقال بالتشكيك أي تبعًا للماهية الإلهية لا بالتواطؤ، أي تبعًا لماهية المخلوقات فلا نتصور الله على مثالنا، ولما كان الله غير معلوم لنا علمًا مباشرًا تظل الصفة المحكوم بها خافية دون أن ينقص هذا الخفاء من قوة الحكم» (ص155).

وعلى ذلك فإن أهم الصفات الألهية: البساطة (أو عدم التركيب)، واللانهاية والوحدانية وهي غير «الواحدية التي تعني عدم انقسام الوجود في ذاته وانفصاله عما سواه بينما الوحدانية تعني عوم وجود نظير أو شبيه أو مثيل. والواقع أن ليس يوجد وليس يمكن أن يوجد سوى إله واحد «وحداني»» (ص159).

ومن صفات الذاتية الإلهية إلى صفات الفعل الإلهي التي تتمثل في العلم الإلهي والإرادة

الإلهيــة والخلق والعناية، إلى بحث حجج القائلين بالأحادية والرد عليهم ببيان أن الوجود ليس متناقضًا ولا واحدًا وأن الله بطبيعته مباين للعالم؛ فوجودنا مستقل عن الوجود الكلي الإلهي.

إن الفلســفة التــي يقدمها يوســف كرم فلســفة ميتافيزيقية - عقليــة حريصة على تأكيد الإيمان بالوجود الإلهي. هذه الفلســفة الإيمانية تبــث في المؤمن التفاؤل «فالمؤمنون متفائلون.. إنهم واثقون بكمال الله وعدالته فلا يخشون ظلمًا ولا إعراضًا» (ص185).

أهم المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

يوسف كرم:

- تاريخ الفلسفة اليونانية، طبعة دار القلم، بيروت - لبنان، بدون تاريخ.
- تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط، طبعة دار القلم ببيروت - لبنان، بدون تاريخ.
- العقل والوجود، دار المعارف بمصر، القاهرة 1956م.
- الطبيعة وما بعد الطبيعة، دار المعارف بمصر، القاهرة 1959م.

ثانياً: المراجع

- يوسف كرم مفكرًا ومؤرخًا للفلسفة، كتاب تذكاري أصدره المجلس الأعلى للثقافة بإشراف د. عاطف العراقي، القاهرة 1986م.
- د. عاطف العراقي: العقل والتنوير في الفكر العربي المعاصر، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة 1998م.
- د. مصطفى النشار: نحو رؤية جديدة للتأريخ الفلسفي باللغة العربية، مكتبة مدبولي بالقاهرة، 1993م.